أصداء الزمن عند الشاعر الجاهلي

إعداد

د / أسمـاء أبوزيد محمد أبوزيد
كلية الآداب -جامعة المنصورة

١٤٤٣هـ = ٢٠٢١م

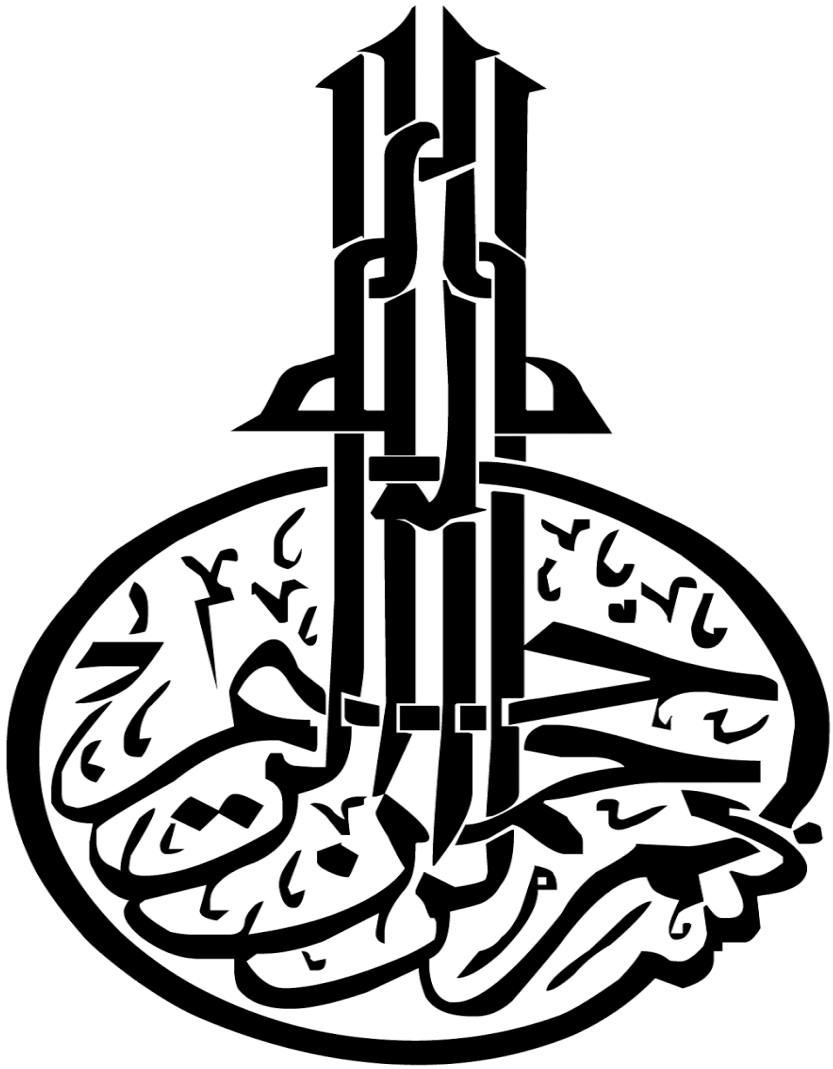

أصداء الزمن عند الشاعر الجاهلي

أسماء أبوزيد محمد أبوزيد
قسم اللغة العربية، كلية الآداب جامعة المنصورة، مدينة المنصورة، جمهورية مصر العربية
البريد الإلكتروني:
emanabozaid0@gmail. com

ملخص البحث:

الهدف من البحث: الزمن في الشعر الجاهلي هو بحث في الزمن كما أحسه الشاعر الجاهلي وما تصوره والبحث محاولة في الكشف عن هذا التصور، لقد رأىٰ الجاهلي في الزمن قوة لا قِبَل له بها، فقد أحس الشاعر الجاهلي بالزمن قوة تهدد حياته وبقاءه واستمراره، وقد عبر الشاعر الجاهلي في أشكال مختلفة عن مفهومه للزمن وصراعه معه تعبيراً ينبئ عن مدي إحساسه به.

فالشاعر الجاهلي وقف أمام الزمن مليًا، وتأمله تأملًا عميقًا بفكر ثاقب، إذ وجد فيه قوة لا تقاوم، ولذا فقد ربط بينه وبين الموت، فالزمن في رأيه جسر يعبر عليه الانسان من حال إلىٰ حال.

وكان الشاعر الجاهلي ضائقًا بالزمن، حيث اقترن مفهوم الزمان لديه بالمعاناة التي يتعرض لها الانسان في حياته، فالشاعر يدرك أن صروف الزمن لا تعبأ بشيء، فلا ينخدع إنسان في حالة تبسم الزمن له، ذلك أن حركته لا تأخذ خطًا بيانيًا مستقيمًا في أحداثه التي ينزلها بالناس.

المنهج المتبع: قد اعتمدت في تحليل النصوص علىٰ آليتي الوصف والتحليل، عن طريق وصف الظاهرة ثم تحليلها

ومن أبرز النتائج التي توصلت إليها

– كيف كان هاجس الزمن يملأ فجاج نفس الشاعر حيث نظر إلىٰ الزمن نظرة الخائف القلق، ومن ثم اقترن مفهومه لديه بالفناء وأن الزمن الحقيقي لدىٰ الشاعر الجاهلي هو الزمن الماضي لأن فيه قوته ولا يعترف بزمانه الآن لأن فيه عجزه وضعفه، وقد شغف الشاعر الجاهلي بالأطلال، ومن ثم ربط بين الزمن الحاضر والماضي في المقدمة الطللية، فهي شكل من أشكال المقارنة بين الماضي والحاضر

الكلمات المفتاحية: الشاعر الجاهلي، الزمن، الصراع، القوة، المعاناة

Time Echoes According to the Poet of Pre-Islamic Period

Asmaa Abouzaid Mohamed Abouzaid
Department of Arabic Language and literature ،Faculty of Arts ،Mansoura University ،Mansoura City ،The Arab Republic of Egypt .
The General Administration of Mansoura University
Email: emanabozaid0@gmail. com

Abstract:

Objective of Research: The poetry in the Pre-Islamic Period is a quest for time according to what the poet of this period felt as well as his imagination. The research is an attempt to uncover this imagination as the man of this period had an infinite power. The poet of this period felt that the power of this period can threat his life ،existence and continuity. Thus ،the poet of this period expressed his imagination through various types of his understanding of time and the struggle with it in a way of his expectation.

The poet of Pre-Islamic Period looked at the time carefully with a deep medication and insightful thought. He found in it an irresistible power and connected time with death as time to him was just a bridge for a man to pass from a status to another. The Poet of Pre-Islamic Period was obsessed with time as his understanding of time was about suffering of a man throughout his life. Further ،the poet knew that time was tricky as a man should be deceived with time once it smiled to him as the time did not move in a straight way with its events that happened to the people .

Method of Research: In analyzing texts ،it depends on description and analysis through describing the problem and then analyzing it .

The Main findings of research :

How the obsession with time overwhelmed the consciousness of the poet? He looked at the time fearfully and his understanding of time was mortal. The true time according to the poet of Pre-Islamic Period was the past one because it had power and he denied his current time that showed his inability and weak. The passion of the Poet of Pre-Islamic period was the ruins and he connected the present and past times in his introduction to ruins which was a type of comparison between the past and present .

Key Words: The Poet of Pre-Islamic Period – Time- Struggle- Power-Suffering .

المقدمة

الحمد لله علىٰ نعمائه، والشكر له علىٰ توفيقه وامتنانه، والصلاة والسلام علىٰ أشرف خلق الله محمد بن عبدالله، صلىٰ الله عليه وعلىٰ آله وصحابته الأجلاء.. وبعد

أما عن أهمية الدراسة: -

تهدف الدراسة إلىٰ الكشف عن أثر الزمن في الشعر الجاهلي، وعن مدىٰ إحساس الشاعر الجاهلي بالزمن، و دراسة الزمن هي دراسة في "الباعث" أو "الهاجس"، ولذلك كان طبيعيا أن تؤدي دراسة الزمن إلىٰ دراسة القصيدة بمختلف موضوعاتها، وتوصلت الدراسة إلىٰ أن الإحساس بالزمن وتحولاته يمثل حاضر الشاعر الجاهلي بالرغم من أنها تنتمي إلىٰ الأزمان المختلفة (الحاضر، الماضي، المستقبل)، كما أن إحساس الشاعر بالزمن هىٰ دراسة لصفات الزمن كما أحس بها الشاعر الجاهلي، ولما أسميته بتحولات الزمن وهي ثلاثة: الأطلال والشيب والموت.

المنهج المتَّبَع في الدراسة: -

إنَّ مخطط البحث يقوم علىٰ عنصرين وهما: رصد إحساس الشاعر الجاهلي اتجاه الزمن، ثم يشفع ذلك برصد الظواهر الفنيَّة؛ لذلك اقتضت طبيعة الدراسة أن تعتمدَ المنهجَ الوصفيَّ التحليلي عن طريق وصف الظاهرة ثم تحليلها .

خطة الدراسة: -

تتكون هذه الدراسة من مقدمة، وتمهيد، وخمسة مباحث وخاتمة.

المقدمة: فيها أهمية الدراسة، ومنهج الدراسة، وخطة الدراسة.

التمهيد: تناولت فيه إحساس الشاعر الجاهلي اتجاه الزمن وتقلباته.

وقد كان هيكل البحث مكوَّنًا من سبعة مباحث كما يأتي:

المبحث الأول: – "الصراع مع الزمن والتبرم به" حيث عبر الشاعر الجاهلي في أشكال مختلفة عن مفهومه للزمن وصراعه معه، وتسربه من بين يديه.

المبحث الثاني: – مفردات الزمن في حس الشاعر الجاهلي ودلالتها" فقد أصبح للزمن رصيدا واسعا في حس الشاعر الجاهلي وذلك من خلال مفرداته الدالة عليه.

المبحث الثالث: – " الزمن قوة غالبة" فقد رسم الشاعر الجاهلي للزمن في ذهنه قوة قادرة علىٰ الفناء والموت.

المبحث الرابع: – "الزمن وتغير الأحوال" حيث شعر الشاعر الجاهلي بأن الزمن هو الجسر الذىٰ يعبر عليه الانسان لتغيير مصيره من حال إلىٰ حال.

المبحث الخامس: – الاستعاضة عن الزمن الحاضر بالماضي" حيث يعيش الشاعر الجاهلي بحسه الشعري الزمن الماضي، فلا يعترف بزمانه الحاضر الذي يذكره بضعفه وشيبه.

المبحث السادس: – "الشكوىٰ من الزمن وبواعثها" فقد عبر الشاعر الجاهلي عن شكواه من الزمن الذي يقضي علىٰ كل شئ ولا يترك أثرا له.

المبحث السابع: – " الزمن من خلال الطلل" فقد شغف الشاعر الجاهلي بالأطلال، ومناجاتها، وتأملها تأملا يعبر عن إحساسه بالحزن.

ثم كانت الخاتمة وفيها بينت أبرز النتائج التي توصلت إليها من خلال هذا البحث

التمهيد

الزمن في الشعر الجاهلي هو بحث في الزمن كما أحسه الشاعر الجاهلي وما تصوره والبحث محاولة في الكشف عن هذا التصور، لقد رأىٰ الجاهلي في الزمن قوة لا قِبَل له بها، وفي هذا المجال يقول محمد زكي العشماوي: " فقد كان للشاعر العربىٰ القديم موقفه من الزمان الذىٰ يتجسد عنده بالدهر أو هكذا كان يرمز للزمن بهذه الكلمة، وكانت تعنىٰ لديه الخطر الذىٰ يهدد الانسان، بوصف الزمان عاملا مهددا للبقاء والحياة معا..... "[1].

فقد أحس الشاعر الجاهلي بالزمن قوة تهدد حياته وبقاءه واستمراره.

فالشاعر الجاهلي وقف أمام الزمن مليًا، وتأمله تأملًا عميقًا بفكر ثاقب، وحس مرهف إذ وجد فيه قوة لا تقاوم، وسهمًا لا يمكن لأحد توقيه، ولذا فقد ربط بينه وبين الموت، فالزمن في رأيه جسر يعبر عليه الانسان من حال إلىٰ حال، فهو يشيب الصغير، ويفنىٰ الكبير، ولذا فقد توجس خيفة من مروره إذ فيه قهر للرغبات وإطفاء لنار الشهوات.

وكان الشاعر الجاهلي ضائقًا بالزمن، حيث اقترن مفهوم الزمان لديه بالمعاناة التي يتعرض لها الانسان في حياته، وعدم الاستقرار وتبدل الأحوال، فالشاعر يدرك أن صروف الزمن لا تعبأ بشئ، فلا ينخدع إنسان في حالة تبسم الزمن له، ذلك أن حركته لا تأخذ خطًا بيانيًا مستقيمًا في أحداثه التىٰ ينزلها بالناس.

❁❁❁❁❁

(١) موقف الشعر من الفن والحياة في العصر العباسى، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت ١٩٨١، ص ١٩٤

المبحث الأول: الصراع مع الزمن والتبرم به

الإحساس بالزمن ينتظم كل بنىٰ البشر ويمثل بعدًا ذاتيًا عند كل إنسان، ولكن الشاعر: يختلف في الدرجة أحيانًا، وفي النوع أحيانًا أخري عن غيره من الناس في تحسسه للزمن، وإذا كان الزمن عند الإنسان العادي يمثل حركة ينتقل فيها من ماض إلىٰ حاضر فإن الشاعر يتجاوز هذه الحركة الأفقية إلىٰ دلالة ذاتية متشابكة، أي العمل علىٰ إحداث الفعل في الزمان وموقفه إزاءه وهذا يعنىٰ أن الزمن يتحول إلىٰ بعد ذاتي يعيد الشاعر صنعه أو خلقه من جديد"[1].

وقد عبر الشاعر الجاهلي في أشكال مختلفة عن مفهومه للزمن وصراعه معه تعبيراً ينبئ عن مدي إحساسه به، وشعوره بتسربه من بين يديه، حتىٰ تلك الساعة التي هي الحاضر لا ثبات لها ولا ديمومة، ذلك أنها تتفلت من بين يدي الإنسان شاء أم أبىٰ، أحب أم كره. لتصبح ماضيًا لا يملك من أمره شيئا، لأنه انصرم وأصبح بعيداً لا يمكن تداركه، ذلك أنه انتقل من الغد إلىٰ الحاضر ثم أصبح ماضيًا.

والعيش لا عيش إلا ما تقربه عين ولا حال إلا سوف تنتقل[2]

(١) الشعر الجاهلي قضاياه وظواهره الفنية د/ كريم الوائلي، دار العالمية للطباعة والنشر، ص٩١.

(٢) البيت في الأغاني – دار الكتب العلمية– الطبعة الأولي، سنة ١٩٨٦ – ٢٦/١١ منسوب للنابغة وليس في ديوانه.

وكان الشاعر الجاهلي ينظر حوله فيجد الأشياء تندرس، والأحياء يرحلون إلىٰ دار البلىٰ، ورأي أمامه تتابع الأجيال جيلا بعد جيل، وظهورًا ودثورًا علىٰ مر الدهور فأدرك أنه سيلفه المصير نفسه، وسينتهي به سير الزمن إلىٰ الغاية عينها إذ الزمن يتحرك، فالغد المجهول يجري نحو الحاضر ويصير معلومًا، والغد حين يصبح حاضرًا إنما يُنقِص رصيد المرء من أيامه المقدرة له في علم من يملك بزمام عمره، فهيهات أن ينال أحد الخلود يقول عبيد:

ما تبتغي من بعد هذا عيشة إلا الخلود ولن تنال خلودا[1]

ويقول حاتم:

هل الدهر إلا اليوم أو أمس أو غد كذاك الزمان بيننا يتردد

يرد علينا ليلة بعد يومها فلا نحن ما نبقي ولا الدهر ينفد[2]

فالخلود يستحيل، ورحىٰ الزمان دائرة لا تتوقف، وقافلته تمضي بأناس عن وجه الحياة لتأتي بآخرين:

ذاك دهر لأناس قد مضوا ولهذا الناس دهر قد سنح[3]

وكان الشاعر الجاهلي برمًا بالزمن ضائقًا به ذلك أنه تصوره: " قدرًا محتومًا لا مفر منه فهو حين يوافي الإنسان يتعلق بأدني الأسباب المؤدية إليه،

---

(١) ديوان عبيد بن الأبرص – دار بيروت للطباعة والنشر – سنة ١٩٧٩ – ص٧٠.

(٢) ديوان حاتم الطائي – دار صادر بيروت – سنة ١٩٨١ – ص٣٤.

(٣) ديوان الأعشى الكبير – مؤسسة الرسالة – بيروت– الطبعة الثانية – سنة ١٩٦٨ – ص٢٩٥.

ومن ثم فقد اقترن مفهوم الزمان لديه بالمعاناة والموت، وأصبحت ذلك كلمات مثل: الدهر، والزمن، والقدر من أكثر الكلمات في هذا الشعر اتصالا بالموت، وإيحاء به، وتعبيرا عن ألوان من المعاناة التي يتعرض لها الإنسان في حياته ولا يستطيع لها دفعا"[1]

فثمة تواشح قوىٰ أقامه الشاعر الجاهلي في نفسه بين الزمان، والموت، وكأنه المسئول في رأيه عن هذا الفناء الذي يلحق الأحياء والذي هو نهاية يرقبها الإنسان كل يوم.

❁❁❁❁❁

(١)بين القديم والجديد- د/ إبراهيم عبد الرحمن محمد – مكتبة الشباب – سنة ١٩٨٧ – ص٥٨٧، ٥٨٨.

المبحث الثاني: مفردات الزمن في حس الشاعر الجاهلي ودلالتها

ومما يدل علىٰ أن للزمن رصيدًا واسعًا في حس الشاعر الجاهلي اهتمامه بمفرداته الدالة عليه حتىٰ الأجزاء الصغيرة كان لها حضور في حسه ومن ذلك: [1]

أ) **الدقيقة:** لم نجد في الشعر الجاهلي ولا في كتب اللغة استعمالا للدقيقة بمعناها الزمني المعروف.

وهناك إشارات تشير إلىٰ أن الشاعر المحزون كان يعد الحصىٰ ونحسب أن عملية العد تلك كانت تجزيئا للوقت مقاربًا للدقائق أو الثواني.

قال امرؤ القيس:

ظللت ردائي فوق رأسي قاعداً أعد الحصىٰ ما تنقضي عبراتي[2]

أما الدقيقة كجزء من ستين من أجزاء الوقت فلم تعرفها العرب في الجاهلية لأنها لفظة محدثة[3].

ب) **الساعة:** وللساعة معنيان أحدهما أن تكون جزءًا من أربعة وعشرين جزءًا وهي مجموعة النهار والليل، والثاني أن تكون جزءًا قليلًا من النهار أو الليل[4].

---

(١) الزمن عند شعراء العرب قبل الإسلام – عبد الإله الصائغ – دار الشروق الثقافية العامة – سنة ١٩٨٦ – ص٨٤ ومابعدها.

(٢) ديوان امرؤ القيس – تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم – دار المعارف – الطبعة الخامسة – ص٧٨.

(٣) انظر المعجم الوسيط – مجمع اللغة العربية – الطبعة الثالثة – ١/ ٣٠١.

(٤) أنظر: لسان العرب – ابن منظور – دار المعارف – (سوع).

قال امرؤ القيس:

ساعة ثم انتحاها وابل ساقط الأكناف واه منهمر[1]

ج) **اليوم:** وهو المدة المقدرة من طلوع الشمس إلىٰ غروبها، ومعانيه في ذلك عديدة منها: الدهر والوقت مطلقا[2].

قال امرؤ القيس:

كأني غداة البين يوم تحملوا لدىٰ سمرات الحي ناقف حنظل[3]

د) **الشهر:** والشهر هو العدد المعروف من الأيام والأصل فيه القمر أو الهلال وإنما سمي شهراً لشهرته بهما وظهوره من خلالهما، وفيهما علامة ابتدائه وانتهائه[4].

قال أمية بن أبي الصلت:

والشهر بين هلاله ومحاقه أجل لعلم الناس كيف يعدد

لا نقص فيه غير أن خبيئه قمر وساهور يسل ويغمد[5]

هـ) **العام:** الحول والسنة فترة زمنية محددة باثني عشر شهرا تأتي علىٰ شتوة وصيفية ويري ابن سيده أن العام يختص بالجدب فكأنه طلل لجدبه وامتناع خصبه[6].

---

(١) ديوان امرئ القيس، ص١٤٥.

(٢) لسان العرب لابن منظور (يوم).

(٣) ديوان امرئ القيس– ص٩.

(٤) لسان العرب لابن منظور (شهر).

(٥) ديوان أميه بن أبي الصلت جمع وشرح د/ سجيع جميل الجبيلي – دار صادر – بيروت الطبعة الأولي – سنة ١٩٩٨ – ص٤٩.

(٦) لسان العرب لابن منظور (عوم).

قال زهير بن أبي سلمىٰ:

عفــا عـــام حلـت صـيفه وربيعـه وعـام وعـــام يتبـع العـام قابـل[1]

كما كان الشاعر الجاهلي يقدس الزمن وآية ذلك أنه كان يحلف به، فالنابغة الذبياني حين أراد أن ينفي عن نفسه تهمة ألصقها به المغرضون لم يجد أقدس من عمره ليحلف به فهو يقول:

لعمري وما عمـــر عـــلىٰ بهـين لقـد نطقـت بطـلاً عـــلىٰ الأقـارع[2]

والعمر هو صورة من صور الزمان "وفي النظر إلىٰ مفردات العمر ما يوضح الدقة في تقسيمه علىٰ أوقات معلومة، فالطفل الذي جاءت به أمه قبل أوانه وإن كان تام الخلقة يسمي (خداج)، والجارية إذا كعب ثديها تسمي (كاعبا). ثم (ناهداً)، ثم (معصراً)، والمتقاربون في الأعمار يسمون (اللدات)، وثمة الضرع والقحم و(حلب الدهر أشطره) (وشرب أفاويقه) للرجل المسن والمجرب، والأوقات التي يمر بها عمر الإنسان، والتوسع في تسمياتها تنم عن مدي إحساس العربي بالوقت المحدد للحياة"[3].

وبمقتضي هذه النظرة فقد وجدنا من الشعراء الجاهليين من يري في الزمن ببرهاته ولحظاته وساعاته، وشهوره مددا للحياة التي يحياها، وهي تشبه

---

(١) ديوان زهير بن أبي سلمي – شرح ثعلب – الدار القومية للطباعة والنشر – سنة ١٩٦٤ – ص٢٩٣.

(٢) ديوان النابغة الذبياني جمع وشرح محمد بن الطاهر عاشور – الشركة التونسية للتوزيع، ص١٦٥.

(٣) الزمن عند شعراء العرب قبل الإسلام، ص٦٩.

وجبات الطعام اللازمة لاستبقاء حياتهم، واستمرارها يقول مالك بن المنذر البجلي:

أكـــلت شبـــابي فـــأفنيته وأمضـيت بعـد دهـور دهـورا

ثلاثـــة أهـــلين صـــاحبتهم فبـادوا وأصـبحت شـيخا كبيـرا

قليـل الطعـام عســـير القـــيا م قـد تـرك الـدهر قيـدىٰ قصـيرا

أبيـت أراعـي نجـوم السمـــا ء أقلـب أمـري بطونـا ظهـورا[1]

(١)المعمرون والوصايا - أبو حاتم السجستاني- تحقيق عبدالمنعم عامر – دار احياء الكتب العربية سنة ١٩٦١- ص١٢٤، ١٢٥.

المبحث الثالث: الزمن قوة غالبة

رسم الشعراء الجاهليون للزمن في أذهانهم قوة قادرة علىٰ الإهلاك جاء في القرآن الكريم : ﴿وَقَالُوٓاْ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا نَمُوتُ وَنَحۡيَا وَمَا يُهۡلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهۡرُۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنۡ عِلۡمٍۖ إِنۡ هُمۡ إِلَّا يَظُنُّونَ ٢٤﴾[1].

كما سلطوا الضوء علىٰ ما ينطوي عليه من قوة تُجبر الأحياء علىٰ السير في طريق معلوم لا يحيدون عنه، وبمقتضي هذه النظرة وجدناهم يمعنون في التفكير في الحوادث، وصروف الدهر ويعجبون من تلك القوة الخفية التي تتحكم في مصير الأحياء يقول قس بن ساعدة:

برك الزمان علىٰ ابن هاتك عرشه وعلىٰ أذينة سالب الألواح
وعلىٰ الذي كانت بموكل داره نهب القيان وكل أجر وشاح[2]

والشاعر الجاهلي يحيل العجز الذي نزل به إلىٰ الزمن حتىٰ الفرسان منهم المعروفون بشدة البأس وقوة الساعد تضعضعوا وخارت قواهم أمامه فهذا فارس العرب "عنترة العبسي" الذي يتغنىٰ ببطولته وشجاعته يعترف أنه مهزوم إذ يقول:

فما أوهىٰ مراس الحرب ركنىٰ ولكن ما تقادم من زماني[3]

فهو يعترف بقوة نفسه في ساحات الوغي، أما أمام الزمن فلا سبيل علىٰ الصمود.

وقد رأي الأعشىٰ أن طول الزمن عناء، وأن الموت يطارد الحياة، ويغتال الإنسان سواء أكان بين أهله أم كان وحيدا في القفر:

---

(١) سورة الجاثية: آية ٢٤.

(٢) شعراء النصرانية في الجاهلية – لويس شيخو – مطبعة الآباء المرسلين اليسوعيين – بيروت، سنة ١٩٢٠ – ٢/ ٢١٨.

(٣) ديوان عنترة – دار الكتب العلمية – الطبعة الأولي – سنة ١٩٨٥ – ص١٤٨.

لعمرك ما طول هذا الزمن ... علىٰ المرء إلا عناء معن
يظل رجيما لريب المنون ... وللسقم في أهله والحزن
وهالك أهل يُجَّنونه ... كآخر في قفرةٍ لم يُجَن[1]

والزمن عند الأعشىٰ خائن لا يترك أحدا إلا ويجرعه من كأس مرارته:

أزال أذُينة عن ملكه ... وأخرج من حصنه ذايزن
وخان النعيمُ أبَا مالك ... وأيُ امرئ لم يخنه الزمن[2]

فالزمن لا يترك أحدا علىٰ حالة بعينها، ولا يديم سلطانا لإنسان بل ما من أحد إلا والزمن قد جرعه من كأسه المر.

ويقول لبيد:

بلينا وما تبلي النجوم الطوالع ... وتبقي الجبال بعدنا والمصانع[3]

وكأن لبيد هنا يقارن بين كونه كائنا فانيا يتأثر بالزمان، وبين قدرة الصم الرواسي علىٰ الثبات والخلود، وهذا اعتراف من لبيد بمدي عجز الإنسان عن إيقاف أجل، أو منع حتف، أو هروب من مصير محدق وبمقتضي هذه النظرة وجدناه راضيًا غير ساخط مستسلمًا لكل ما ينزله به الدهر:

فلا جزع أن فرق الدهر بيننا ... وكل فتي يوما به الدهر فاجع[4]

وهذه الرؤية من الشاعر تظهر مدي عجز الإنسان وضآلته بجانب هذه القوىٰ المسيطرة التي لا يستطيع تفسيرها أو استكناه أسرارها.

❁❁❁❁❁

(١) ديوان الأعشى – ص٦٥.
(٢) السابق – ص٦٥.
(٣) ديوان لبيد بن أبى ربيعة – شرح الطوسى – دار الكتاب سنة ١٩٩٣ – ص١١٠
(٤) السابق والصفحة.

المبحث الرابع: الزمن وتغير الأحوال

والزمن هو الجسر الذي يعبر عليه الإنسان من حال إلىٰ حال فلا استقرار ولا ثبوت أمام حالة معينة حتىٰ الأسماء تتحول بقوة الزمن وتتبدل بتأثيره فالشاب يسمي شيخًا والصغير يسمي كبيراً وهكذا... ويقول النمر بن تولب:

لعمري لقد أنكرت نفسي ورابني ... مع الشيب أبدالي الذي أتبدل
وتسميتي شيخًا وقد كان قبله ... لي اسم فلا أدعي به وهو أول
وزُهدي فيكفيني اليسيرَ وإنني ... أنام إذا أُمسي ولا اتَعلَّلُ
وظَلْعي ولم أُكسر وأن حليلتي ... تَحُوز بَنِيها في الفِراش وأُعزل
فصول أراها في أديمي بعدما ... يكون كفافَ اللحم أو هو أجملُ
يحب الفتي طول السلامة والغنىٰ ... فكيف يري طول السلامة يفعل[1]

فالشاعر هنا يرسم لذاته صورة من تبدلت به الحال نتيجة جريان الزمن وتأثيره عليه فهو ينكر حاله مع نفسه، وكذلك حال زوجته التي تهتم بأبنائها عنه كما تتسع دائرة نكرانه لتشمل نعوته وأسماءه التي كان يدعي بها من قبل فتعزل عنه أو يعزل عنها، ليخاطب بغيرها مما هو خليق به في هذا السن، والمتهم الأول الذي يقف وراءه كان ذلك هو الزمن، ومن أجل ذلك يخرج الشاعر بمقررة يقررها استخلصها من تجاربه "أن السلامة والغنىٰ وهما ركيزة السعادة لا قيمة لهما لأنه يعقبهما ما يمحوهما ويزيل آثارهما.

(١) المعمرون والوصايا - ص ٧٩، ٨٠

والزمن الذي يعطي الإنسان كل شيء في شبابه يعود فيسلبه كل شيء في مشيبه، وتلك حقيقة في شعر الشاعر الجاهلي لا يمكن إغفالها أو تجاهلها، إذ يظل الشاعر الجاهلي يشعر بها ويعايش نتائجها فآثاره لا يمكن تجاوزها أو البعد عنها. لذا فقد تبرم به وضجر منه، لأنه أصبح ندًا له ومنافسًا قويًا يقهر رغباته ويطفئ نار شهواته، وكأن بهذا الزمن المتربص يتحول من وقت يمضي ويمر إلىٰ مهلك، يقول سعية بين العريض اليهودي وهو أخو السمو آل:

ألا إنـــي بليـت وقـــد بقيـت وإني لـــن أعـــود كمـا غنيـت

فـإن أودي الشـباب فلـم أضـعه ولـــم أتكـل عـــلىٰ أني غـذيت[1]

فالشاعر هنا أحس بالزمن إحساسا قويًا فقد أصبح فانيًا باليًا يعيش حياة هي أقرب إلىٰ الموت، ويتحسر بشدة علىٰ ماض انقضي ولن يعود ماض " كان " وليس "كائن".

❁❁❁❁❁

(١) الأصمعيات – أبو سعيد عبد الملك بن قريب الأصمعي – تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون – بيروت – الطبعة الخامسة – ص٨٣.

المبحث الخامس: الاستعاضة عن الزمن الحاضر بالماضي

وقد رأينا الشاعر الجاهلي يستعيض عن الزمن الحاضر"الكائن" بالزمن الماضي" المتخيل" يقول عوف بن عطيه:

إما تريني قد كبرت وشفني وجع يقرب في المجالس عودي
فلقد زجرت القدح إذ هبت صبا خرقاء تقذف بالحذار المسند[1].

فالشاعر هنا: "يقدم نفسه اليوم في صورة الأمس لكي ينفي عن نفسه الضعف الحالي. فالزمن الحقيقي لديه ليس زمانًا مستمرًا قدر ما هو زمان فائت استمر حقبة، فهو يكيل هنا للزمان الدهري الضربة بالعودة إلىٰ زمانه الحقيقي، فلا يعترف الشاعر بزمانه الآن لأن فيه عجزه، وإنما يعترف بزمانه الماضي لأن فيه قوته، فالزمان هو الشباب والقوة، ولا سوي ذلك"[2].

فالزمن إذن متقلب، وثبات الإنسان أمامه مستحيل كاستحالة ثبات الزمن مع الإنسان علىٰ حالة واحدة وتلك حقيقة آمن بها الشاعر إيمانًا قويًا يقول زهير:

ألا لا أرىٰ ذا إمة أصبحت به فتتركه الأيام وهي كما هي[3]

فصاحب النعمة لا يمكن أن تستقر عنده، ولا أن يكون لها دوام.

ويقول حميد بن ثور الهلالي:

فلا يبعد الله الشباب وقولنا إذ ما صبونا صبوة سنتوب
وإن الذي مناك أن تسعف المنىٰ بها بعدا أيام الصبا لكذوب[4]

---

(١)الأصمعيات –ص١٧٠.

(٢) الزمان والمكان وأثرهما في حياة الشاعر الجاهلي وشعره. د/ صلاح عبد الحافظ، ص٣٣٥.

(٣) ديوان زهير، ص٢٨٨ – الأمة: النعمة والحال الحسنة.

(٤) ديوان حميد بن ثور الهلالي – تحقيق عبد العزيز الميمني – الدار القومية للطباعة والنشر – القاهرة – سنة ١٩٦٥ – ص٥٢.

فالشاعر يحل الماضي محل الحاضر وكأنه لا ماض. وحقيقة الحياة هي الشباب مما يشيٰ بأن ذاته مؤرقة مكدودة، تمضها روح سوداء فتحاول الفرار منها بتذكر الماضي الجميل، لعل ذلك يخفف من وطأة الوعي، وعناء التفكير فيه، فهي تتنسم أريج الماضي وتصور أيام العمر الوريق وتغيب عن الحاضر، وعن الغد علىٰ سواء.

وهكذا كان زمن الشباب هو زمن اللهو والمتع ويقاس عمر المرء الحقيقي بمدي قدرته علىٰ التجاوب معه، وما من أحد إلا وهو يود أن تدوم متعته بلذائذ الحياة، ولكن أني له ذلك؟ والزمن شبح جاثم يقف بالمرصاد لكل بنيٰ البشر لا يستطيعون منه فكاكا، وآثاره لا يمكن تجنبها أو تخطيها ويعد المشيب من أبرز تلك الآثار، ولعل لبيدا وهو يعكس لنا نفسية المرأة يبين لنا شعورها الحقيقي، ومدي كراهيتها لتلك الفترة الزمنية يقول في ذلك:

فعادت عـــــــواد بيننا وتنكـــــــرت وقالت كفي بالشيب للمرء قاتلا[1]

ويقول زهير بن جناب الكلي:

والمـــــوت خيـــــر للفتـــــي ولـــــيهلكن وبـــــه بقيـــــة

مـــن أن يـــري الشـــيخ البجـــا ل وقـــد يهـــادي بالعشـــية[2]

فالشاعر هنا يفضل الموت والهلاك وفيه بقية من شبابه علىٰ أن يمتد به العمر حتىٰ يشعره تبجيل الناس بتقدمه في السن تقدما يجعله يمشي بين رجلين، وهو يهادي معتمدا عليهما من ضعفه وتهالكه.

❁❁❁❁❁

(١) ديوان لبيد، ص١٤١.

(٢) طبقات فحول الشعراء – الجمحي – شرح محمود شاكر – مطبعة المدني – سنة ١٩٨٠ – ج١ – ص٣٧.

المبحث السادس: الشكوى من الزمن وبواعثها

نلمح موقفا سلبيا من الزمن للشعراء الجاهليين ينبئ عن تضعضعهم أمامه وتخاذلهم إزاء المحن والنوائب التي تعصف بالناس دون أن يستطيع أحد أن يدفعها أو يدرأها، وقد آمن الشعراء بذلك إيمانا رسخته الأيام وأكدته أحداث الليالي، يقول الأسود بن يعفر:

فـإذا وذلـك لا مهـاه لـــــذكـــــره والـدهر يعقـب صـالحًا بفسـاد[1]

فهو يراه قادراً علىٰ كل شيء فلا يبقي ذكرا، وهو يأتي بالفساد بعد الصلاح وهذه نظرة تكشف عن طبيعة الحس العدائي لدي الشاعر تجاه الزمن.

وطاقة الإنسان محدودة، ولا قبل له بمغالبة الزمن لذا فإن كان ثمة اعتراض علىٰ أحداث الزمان أو تبرم بها فلا تخرج عن دائرة الشكوىٰ أو العتاب يقول عنترة:

أرىٰ لـي كـل يـوم مـع زمـاني عتابـــًا في البعـــاد وفي التـــداني

يريـــد مـــذلتي ويـــدور حـــولي بجـــيش النائبـــات إذا رآني[2]

فليس هناك أمل في المصالحة، فالشاعر مترع القلب من الزمن، والعلاقة بينهما ليست إلا نوع من الصراع الدائم، وهو يتخيل حوادثه ونوائبه كتيبة

---

(١) المفضليات – المفضل بن محمد الضبى – تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر، وعبدالسلام محمد هارون – دار المعارف –الطبعة السابعة.

ص٢٢٠، لامهاه: لا بقاء

(٢) ديوان عنترة – ص١٤٦.

عسكرية منتظمة في جيش الزمان همها الأكبر إذلاله والنيل منه... ولعل حياة عنترة الحربية كان لها تأثير مباشر في أسلوبه وتشبيهاته.

وربما استند الشاعر في موقفه من الزمن علىٰ ما يقع أمامه من أحداث وما يلمسه في حياته منها مما يكشف عن القوة المطلقة له فلا يستطيع إلا أن ينسبها إليه ويسحب من الموقف ما هو دونه من مؤثرات أخرىٰ يقول المرقش الاصغر:

كم من أخى ثروة رأيته ... حل على ما له دهر غشوم
ومن عزيز الحمى ذى منعة ... أضحى وقد أثرت فيه الكلوم
بينا أخو نعمة إذ ذهبت ... وحولت شقوة إلى نعيم
وبينا ظاعن ذو شقة ... إذ حل رحلا وإذ خف المقيم
وللفتى غائل يغوله ... يا ابنة عجلان من وقع الحتوم[1]

فهو لا يرىٰ أمامه من بصمات الدهر الا تلك المصائب التي أوقعها بالبشر حين حول الغني إلىٰ فقير، والعزيز إلىٰ ذليل، والسعيد إلىٰ شقىٰ وكأنا هنا نحس – بوضوح – انسحاب الإرادة البشرية وتسليمها دون مقاومة.

❁❁❁❁❁

(١) المفضليات، ٢٤٩.

المبحث السابع: الزمن من خلال الطلل

شغف الشاعر الجاهلي بالأطلال، ومناجاتها، ورأي أن الاندثار هو معادل موضوعي لفنائهم وتلاشيهم وطي صفحتهم من علىٰ خارطة الحياة. ولذا فقد شكلت المأساة محورا للمقدمة الطللية، ولا نكون مغالين إذا قلنا إن الشعور بالفجيعة هو لحمتها وسداها، فالشاعر كان في هذه الديار، وكانت إذ ذاك عامرة تعج بالحياة، وتفيض بالبهجة والأنس فأصبحت قفرا، وبلقعا خرابا، شديد الوحشة تتلاعب به الريح، وتعبث به أيدي الأيام، وعاصفات الريح، حالتان متقابلتان ولكن ثمة ارتباط بين الزمن الماضي والحاضر في المقدمة الطللية، ذلك أن الشاعر كان يستغرق في تأملها يوم أن كانت آهلة ينبض كل ما فيها بالحركة وها هو الآن يري حاضرا مغايراً آلت إليه الأوضاع.

ويقول الحارث بن حلزة:

لا أرىٰ من عهدت فيها فأبكىٰ الـ ... ـيوم دلها وما يحير البكاء[1]

وإذا كان الحارث يرىٰ أن البكاء علىٰ الطلل لا يجدي فإننا نرىٰ عبيدا يقص علينا في صورة مركبة ان الدموع علىٰ الأطلال كثرت وأصبحت نهرا صغيرا بل جدولا كبيرا، لمسيل الماء فيه صوت عال، وهذا الجدول ينساب أسفل النخيل:

إن بدلت من أهلها وحوشا ... وغيرت حالها الخطوب

(١) شرح المعلقات السبع، ص ١٣١

عينـــــاك دمعهـــــا ســـــروب كـــــأن شـــــأنيهما شـــــعيب
واهيـــــة أو معـــــين ممعـــــن أو هضـــــبة دونهـــــا لهـــــوب
أو فلـــــج مـــــا بـــــبطن واد للمـــــاء مـــــن تحتـــــه ســـــكوب
أو جـــــدول في ظـــــلال نخـــــل للمـــــاء مـــــن تحتـــــه قســـــيب[1]

فالدموع علىٰ الطلل كثيرة وغزيرة لدرجة أننا نرىٰ عنترة يروي بأدمعه الأطلال التي ينزل عليها المطر فيقاوم بتلك الدموع ندرة المياه وقسوة الجفاف:

يـامنزلا أدمعـي تجـــــري عليـه إذا ضن السحاب علىٰ الأطلال بالمطر[2]

ويقول امرؤ القيس:

كـأني غـداة البـين يـوم تحملـوا لـدىٰ سـمرات الحـىٰ نـاقف حنظـل[3]

وناقف الحنظل عينه لا تنفك عن البكاء، فالصورة هنا دلالتها علىٰ كثرة البكاء أكثر من دلالتها علىٰ الحزن، ذلك أن ناقف الحنظل لا تزال عينه دامعة سواء أكان حزينا أم لا.

وراح الشاعر الجاهلي يصور الحياة في الديار في صورة أفعال تمتلئ بالحركة أو مظاهر الحياة يقول لبيد: –

عفـت الـديار محلهـا فمقامهـا بمنـىٰ تأبـد غولهـا فـر جامهـا[4]

(١) ديوان عبيد، ص٢٤، ٢٥.
(٢) ديوان عنترة، ص٦٩.
(٣) شرح المعلقات السبع – الزوزنى – دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان، ص٦.
(٤) ديوان لبيد، ص ١٩٩ – تأبد: سكنته الوحوش والأوابد، الغول والرجام: مواضع، الرجام: الجبال الصغار.

وحينما تأبدت هذه الدور التي عفت من أهلها لم تخل من الحياة فقد سكنتها الأوابد من الظباء والنعام والطيور والسباع، وكأن الماضي العامر يمتد في الحاضر رغم خلوه من ساكنيه يقول عبيد:

أوطنتها عفر الظباء وكانت قبل أوطان بدن أتراب[1]

وهكذا راح الشاعر الجاهلي يقاوم العفاء الناجم عن تسلط الزمن ويثبت قدرته علىٰ تحديه ويرفض بإصرار فكرة أن الماضي قد اندثر.

❁❁❁❁❁

(١) ديوان عبيد، ص ٤٢ – أوطنتها: أقامت بها، العفر: الواحد أعفر نوع من الظباء وهو من أضعفها عدوا، البدن: الواحدة بادنة: الكثيرة اللحم.

الخاتمة

بعد هذه الدراسة التي تحدثت فيها عن " أصداء الزمن عند الشاعر الجاهلي" وسجلت إحساس الشاعر الجاهلي بالزمن، وشعوره به ومدىٰ تباين مواقفه منه، يمكنني أن أسجل أبرز النتائج التي توصلت إليها وهي: –

- كيف كان هاجس الزمن يملأ فجاج نفسه حيث نظر إلىٰ الزمن نظرة الخائف القلق إذ رآه ينساب كالماء لا يمكن القبض عليه أو الإمساك به.
- كان الشاعر الجاهلي ضائقا بالزمن، ومن ثم اقترن مفهمومه لديه بالفناء وكأنه المسئول في رأيه عن هذا الفناء الذىٰ يلحق الأحياء.
- الزمن الحقيقي لدىٰ الشاعر الجاهلي هو الزمن الماضي لأن فيه قوته ولا يعترف بزمانه الآن لأن فيه عجزه وضعفه، فالشاعر يحل الماضي محل الحاضر وكأنه لا ماض له.
- قد اشتكىٰ الشاعر الجاهلي من الزمن فهو لا يرىٰ أمامه من بصمات الزمن إلا تلك المصائب التىٰ أوقعها بالبشر.
- شغف الشاعر الجاهلي بالأطلال، ورأىٰ أن الإندثار معادل موضوعي للموت ومن ثم ربط بين الزمن الحاضر والماضي في المقدمة الطللية، ففي الزمن الحاضر يتجلىٰ الطلل بخلوه من كل شئ فلا حياة فيه، أما الزمن الماضي يتجلىٰ فيه الحياة والآمال، فهي شكل من أشكال المقارنة بين الماضي والحاضر.

قائمة المصادر والمراجع

١) الأصمعيات – أبو سعيد عبد الملك بن قريب الأصمعي – تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون – بيروت – الطبعة الخامسة.

٢) الأغاني – أبو الفرج الأصفهانىٰ – دار الكتب العلمية– الطبعة الأولي، سنة ١٩٨٦.

٣) بين القديم والجديد – د/ إبراهيم عبد الرحمن محمد– مكتبة الشباب – سنة ١٩٨٧.

٤) ديوان الأعشىٰ الكبير – مؤسسة الرسالة – بيروت– الطبعة الثانية – سنة ١٩٦٨.

٥) ديوان امرئ القيس – تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم – دار المعارف – الطبعة الخامسة.

٦) ديوان أميه بن أبي الصلت جمع وشرح د/ سجيع جميل الجيبلي – دار صادر – بيروت الطبعة الأولي – سنة ١٩٩٨.

٧) ديوان حاتم الطائي – دار صادر بيروت – سنة ١٩٨١.

٨) ديوان حميد بن ثور الهلالي – تحقيق عبد العزيز الميمني – الدار القومية للطباعة والنشر – القاهرة – سنة ١٩٦٥.

٩) ديوان زهير بن أبي سلمي – شرح ثعلب – الدار القومية للطباعة والنشر – سنة ١٩٦٤.

١٠) ديوان عبيد بن الأبرص – دار بيروت للطباعة والنشر – سنة ١٩٧٩.

١١) ديوان عنترة – دار الكتب العلمية – الطبعة الأولي – سنة ١٩٨٥.

١٢) ديوان لبيد بن أبىٰ ربيعة – شرح الطوسىٰ – دار الكتاب العربىٰ سنة ١٩٩٣.

١٣)ديوان النابغة الذبياني جمع وشرح محمد بن الطاهر عاشور – الشركة التونسية للتوزيع.

١٤)الزمان والمكان وأثرهما في حياة الشاعر الجاهلي وشعره. د/ صلاح عبد الحافظ – دار المعارف.

١٥) الزمن عند شعراء العرب قبل الإسلام – عبد الإله الصائغ – دار الشئون الثقافية العامة – سنة ١٩٨٦.

١٦) شرح المعلقات السبع – الزوزنىٰ – دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان.

١٧) شعراء النصرانية في الجاهلية – لويس- شيخو – مطبعة الآباء اليسوعيين – بيروت، سنة ١٩٢٠.

١٨) طبقات فحول الشعراء – الجمحي – شرح محمود شاكر – مطبعة المدني – سنة ١٩٨٠.

١٩) لسان العرب – ابن منظور – دار المعارف

٢٠)المعجم الوسيط – مجمع اللغة العربية – الطبعة الثالثة.

٢١)المعمرون والوصايا – أبو حاتم السجستاني- تحقيق عبدالمنعم عامر – دار احياء الكتب العربية سنة ١٩٦١.

٢٢)المفضليات – المفضل بن محمد الضبىٰ – تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر، وعبدالسلام محمد هارون – دار المعارف –الطبعة السابعة.

٢٣)موقف الشعر من الفن والحياة في العصر العباسىٰ، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت ١٩٨١

❁❁❁❁❁